في المنطقة وتماثل مصالحه، بشكل أو بآخر، مع الصهيونية، ان تقمع الجماهير العربية وبأشكال متعددة ومختلفة، وتمنع بالتالي من المساهمة في التصدي للمشروع الصهيوني: الأمر الذي ساعد على ولادة الدولة اليهودية. فلو كانت الجماهير العربية مالكة زمام أمرها ومتحررة من الوجود الاستعماري لتصدت للمشروع الصهيوني – الذي لا يمكن له أن يتم أصلاً الا بوجود قوة استعمارية قامعة لأي تحرك شعبي – بسهولة، وحتى بدون اللجوء إلى استخدام أية طلقة نارية، وعن طريق الكلمة، كالقول مثلاً: اننا لسنا ضد السامية، لكوننا أصلاً ساميين وانسانيين، واذا كان بلفور قد منحكم وعداً بوطن، فليتكرم ويمنحكم المقاطعة التي ولد فيها صاحب كتاب «تاجر البندقية» تكفيراً عما أشاعه بحقكم. فلو كان العرب متحررين من الوجود الاستعماري، لكان بامكانهم قول ذلك، ولكان لقولهم معنى. ولكن، نتيجة لوقوع العالم العربي فريسة الاستعمار الأوروبي،البريطاني – الفرنسي، ونمو المشروع الصهيوني تحت كنفه، وسط ضعف المجتمعات العربية وتخلفها، فان قولاً كهذا لم يكن ليجلب لصاحبه سوى السخرية المشفوعة بالشفقة.

ان نقطة الضعف الاساسية التي ألمت بالعالم العربي، والتي مر المشروع الصهيوني من خلالها، ونما، تمثلت في واقع تغييب دور الجماهير، أي في قمعها ومنعها من المساهمة في التصدي للمشروع بواسطة الوجود الاستعماري. وقامت اسرائيل بفعل هذا التغييب والقمع والمنع، ولا شك بأنها مدينة له بشكل كبير. ومن سخريات القدر أن يتعزز، خلال مرحلة الاستقلال، هذا العامل نفسه ويبقى وجود اسرائيل مديناً له ومرتبطاً به بعلاقة جدلية واضحة.

إذن، فقد شكل القمع الاستعماري، أي حرمان الجماهير العربية من التعبير عن تطلعاتها ورغباتها ضمن أطر وطنية مستقلة، العامل الأساسي لنمو المشروع الصهيوني وتطويره إلى دولة في العام ١٩٤٨، دون أن يكون بوسع الجماهير، بسبب قمعها، التصدي له. وكان من الممكن، بعد انحسار ظلال الاستعمار عن المنطقة، زوال هذا العامل، وبالتالي وضع حد للكيان الاسرائيلي، أو على الأقل منعه من التوسع والتضخم على حساب أراض عربية جديدة. بيد أن ذلك لم يحدث، ليس بسبب تركة العهد الاستعماري فقط، وانما أيضاً، وبالأساس، بسبب بقاء عامل القمع ساري المفعول، وتغذي ساعده يوماً بعد يوم.

ولكي ندرك مدى جسامة خطورة تغييب الحياة الديمقراطية، أي فرض القمع، الذي يعطل إرادة الجماهير، في رسم طريقها وتحقيق أهدافها عن طريق السماح لكافة الاجتهادات والطروحات والمواقف، من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، في التعبير عن نفسها ضمن دائرة الوطن، نجد أنفسنا مضطرين لتوجيه سؤال: ماذا يحدث للكيان الاسرائيلي فيما إذا قام أحدهم فيه، وألغى الحياة الديمقراطية (يتمتع بها مجتمع المهاجرين والمستوطنين فقط) وفرض اجتهاداً واحداً، وقمع أصحاب وجهات النظر المغايرة له؟ الذي سيحدث، هو أن الكيان الاسرائيلي سيجد نفسه أمام ظاهرة بناء «أسوار وأبراج» ليس لتحقيق مهام الصهيونية في تهويد الأرض والتوسع عليها، وانما لزج أبنائه وخنقهم داخلها. الذي سيحدث هو أن ظاهرة الهجرة إلى الخارج ستتسع وتزداد يوماً بعد يوم، وتنشأ حالة تمزق رهيبة ستعصف بهذا الكيان وتدفعه للدخول في طور نهايته.